الكرامية حركة دينية وسياسية

ـ دراستها من خلال سير قادتها ـ



الدكتور مفيد محمد نوري

رئيس قسم التاريخ بالوكالة

كليــة الآداب

الكرامية حركة دينية وسياسية

دراستها من خلال سير قادتها

الفقه فقه ابي حنيفة وحده
والدين دين محمد بن كرام
إن الذين اراهم لم يؤمنوا
بمحمد بن كرام غير كرام «١»

(ابو الفتح البستي)

بلغت الكرامية – في بداية القرن الحادي عشر الميلادي – اوج عظمتها ، كطائفة دينية ذات نفوذ واسع بين فقراء خراسان وبخاصة الفلاحين الذين غدوا ركيزة صلبة للسلطان محمود الغزنوي «٩٩٨ – ١٠٣٠ م» الذي كان يتطلع الى مد فتوحاته في الهند ، فكان من عادته ان يسند المناصب الادارية في دولته ولا سيما رئاسة المدن ، الى اعيان البلد . وكان يلجأ احياناً الى منح هذه المناصب لزعماء المسلمين الذين كانوا يمتلكون تأثيرا شعبياً واسعاً بين السكان . وهكذا نرى ان رئاسة مدينة نيسابور – عاصمة خراسان – اسندت فترة من الزمن الى ابي

(١) العتبي ، ابو نصر محمد ، التاريخ اليميني، (القاهره ١٨٦٩/١٢٨٦) ، ٢ / ٣١٠ . نقلت هذه الابيات بشكل مختلف عند : السبكي ، تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى، (القاهرة ١٩٦٤) ، ٣ / ٣٠٥ ، الزبيدي ، محمد مر تضي، تاج العروس (بيروت ١٩٦٦) ، ٤٣/٩

بكر محمد ، زعيم الطائفة الكرامية التي وصفها بارتولد Barthald بالزهد والتقوى (Pietistic) الا انها كثيرا ما كانت تلجأ الى استخدام اساليب العنف ضد كل من يحاول الوقوف في طريقها ، حتى لنستطيع القول بان خراسان شهدت على يديها ثورة اجتماعية ودينية وسياسية : استمرت الى ما يقرب من قرن «٢» .

ان مؤسس هذه الطائفة هو ابو عبد الله محمد بن كرام بن عراف. ولد سنة ٨٠٥م ، في قرية زرنج في سجستان ، عن أب عربي من قبيلة نزار ، وكان والده ـ حسبما تذهب معظم الروايات ـ يعمل خازناً للكرم فقيل له الكرام «٣» . وقد ترك سجستان في صباه ، وتنقل في بلاد الغور وكرجستان

(٢)
Borthold , W . , 'Turkestan down' to the Mongol invasion , (London 1928), 289

وانظر عن الكرامية عند :

Bosworth, C. E. , 'The rise of the Karamiayyah in Khurasan; Muslim world , L (1960) , 5-14 ; idem , The Ghaznauids (994 - 1040) Edinburh 1963), 185-89 ; massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique mystique (paris 1922) , 230-42 ; Nouri , M. M . , The scholars of Nishupur, thesis (Edinburgh 1967), I, 90-93 : II , 260-63 .

(٣) السمعاني ، ابو سعد عبد الكريم ، كتاب الانساب (الطبعة الحجرية) (لندن ١٩١٢) . ٤٧٦ ابن الاثير ، عزالدين ، اللباب في تهذيب الانساب (قاهرة ١٣٥٦ هـ) ٣٠ / ٣٢ : الذهبي ، شمس الدين محمد ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، (القاهرة ١٩٦٣) ٤ / ٢١ - ٢٢ .

وأطراف خراسان . ناشراً مبادئه وتعاليمه . معلناً خلافه للمذاهب السنية والشيعية على السواء . ثم قدم بلخ ، وكثرت لقاءاته هناك بالزاهد احمد بن حرب حيث أخذ التقشف عنه . ثم درس الحديث على ابراهيم بن يوسف الماكياني . وما لبث ان غادر بلخ الى سرو ؛ وروى هناك عن علي بن حجر ، ثم درس الحديث في هراة على يد عبد الله بن مالك السليماني . وبعد ان جاور في مكة خمس سنين «من ٨٤٤ الى ٨٤٩م» ، قفل عائدا الى موطنه في سجستان ماراً بالقدس فنيسابور . وعند وصوله سجستان باع كل ممتلكاته واظهر التنسك والتعبد والتقشف ؛ واخذ يصرح بالتجسيم ويدعو الى التشبيه . فافتتن به جماعة من القرويين ولكن اهل سجستان حقدوا عليه ووقفوا في طريقه ؛ وسعوا في قتله . إلا ان صاحبها تخوف من الاقدام على ذلك لما رأى في ابن كرام من مخايل التعبد والتقشف ، واكتفى بنفيه الى نيسابور حيث راح يعظ الفلاحين وينشر مبادئه في التجسيم والتشبيه فتبعه كثيرون . «٤»

كان ابن كرام يتميز بزيه الخاص المكون من جبة غير مخيطة مصنوعة من جلود الاغنام ، وقلنسوة بيضاء ، ولكي يستميل اليه عدداً اكبر من المناصرين ؛ اتخذ له حانوتاً لبيع اللبن ، تميز ببساطة واضحة حيث كان ابن كرام يطرح فيه قطعة من فرو يجلس عليها وهناك كان يلتقي باتباعه فيحدثهم ويعظهم ويبشرهم بتعاليمه . وفي نيسابور اجتمع ابن كرام بأئمة

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣ / ٣٠٤ : الذهبي ، ميزان ، ٤ / ٢١ : الصفدي ، صلاح الدين خليل ، الوافي بالوفيات (استنبول ٥٩ – ١٩٣١) ، ٤ / ٣٧٥ – ٣٧٦ .

الشافعية والحنفية غير مرة ، وحدثهم وناقشهم في كثير من المسائل الفقهية والاعتقادية ، وكان على رأس محاوريه ابن خزيمة المتكلم وأحد أئمة الشافعية في المنطقة . وابو سعيد عبد الرحمن بن الحسين الحاكم ، أحد كبار الائمة الحنفية هناك .

وصادف خلال وجود ابن كرام في نيسابور حضور الامام ابو عبد الله البخاري صاحب الصحيح . فدس اليه ابن كرام كتاباً سأله فيه عن عدد من الاحاديث رفع احدها الى الزهري : ونصه « الايمان لا يزيد ولا ينقص » فذيل البخاري كتابه هذا بعبارة اعلن فيها عن سخطه على ابن كرام بسبب ما كان يتناقله من احاديث موضوعة . « ٥ »

نشط ابن كرام في توسيع دعوته بالتجسيم بين الطبقات الفقيرة . وقد اورد البغدادي والشهرستاني والرازي وغيرهم عدداً من آرائه وبدعه في العقائد الاسلامية . وما لبث ان انضم الى دعوته عدد كبير من اهالي نيسابور مدفوعين بما كانوا يرونه على شيخهم من مظاهر التنسك والتأله والتعبد ، لكن ذلك لم يمنع من قيام حركة نقد مضادة لدعواه من اهالي نيسابور نفسها حيث راح يعقد مجالس للحديث والكلام دارت فيها مناقشات شتى . « ٦ »

---

(٥) الصفدي ، الوافي ، ٤ / ٣٧٦ : الذهبي ، ميزان ، ٤ / ٢١ ، قارن :
Boswolth, the rise of the Karamiyyah , 5-6

(٦) البغدادي ، ابو منصور عبد القاهر ، الفرق بين الفرق (القاهرة تاريخ الطبع لايوجد) ، ٢١٥ – ٢٢٥ : الشهرستاني ، ابو الفتح محمد ، كتاب الملل والنحل ، (لندن ١٨٤٦) ، ٧٩ – ٨٥ : الرازي ، فخر الدين (القاهرة ١٩٣٨) ، ٦٦ .

اضطر امير خراسان محمد بن طاهر بن عبيد الله «٨٦٢ ـ ٨٧٣م» الى اعتقال ابن كرام بنيسابور بسبب ادعائه بان الله تعالى جوهر ، وبسبب اصراره على ما كان يدعو اليه من افكار وتصورات تخالف ما ذهب اليه اهل السنة والجماعة وقد بقي ابن كرام في معتقله طيلة ثماني سنوات . وروى عن حاله في السجن انه كان يغتسل صباح كل يوم جمعة . ويتأهب للخروج الى الجامع قائلا للسجان : اتأذن لي بالخروج ؟ فيجيب السجان : لا . فيقول : اللهم اني بذلت مجهودي : والمنع من غيري . وعندما اخرج من السجن ، وعقد له مجلس حضره الامير محمد بن طاهر ، حيث راح ابن كرام يؤكد ثانية بان علمه ما هو الا الهام من الله تعالى ، ويكثر من وضع الاحاديث المكذوبة ، الامر الذي دفع الامير الى ضربه ونفيه عن نيسابور فاضطر الى الرحيل الى الشام حيث توفي في احدى قراها عام ٨٦٩م ، فحمله اصحابه الى القدس ودفن هناك . «١»

كان لتعاليم ابن كرام تأثير كبير على جماهير البسطاء من الفلاحين والمعدمين من ابناء خراسان ، وقد تبلورت مبادؤه وتعاليمه على شكل حركة تبشرية في انحاء واسعة من البلاد الاسلامية حيث انتشر تلاميذه في القرن العاشر الميلادي . وقد بلغ هؤلاء من الكثرة بحيث اصبحوا يعيشون في احياء

---

(١) الصفدي ، الوافي ، ٤ / ٣٧٦ - ٣٧٧ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣٠٥/٣ : الذهبي ، ميزان ، ٤ / ٢١ .

خاصة لهم وفي عدد من الخانقاهات «مراكز دينية وتعليمية» المنتشرة في بغداد والقدس والفسطاط . لكن خراسان وبلاد الغور وكرجستان ظلت المراكز الرئيسية للحركة الكرامية حيث نشط ابن كرام وبذر تعاليمه في بداية حياته. «١» ولقد اشار ماسنيون Massignon - بصدد الكلام عن الخانقاهات الكرامية - بان هذه الخانقاهات والمدارس التعليمية التي انشأتها تلك الطائفة ما هي الا بدايات للمدارس السنية التي نمت بعدئذ . ولكن يبدو ان هذا الاستنتاج ضعيف لكون المدارس السنية نشأت مستقلة عن الخانقاهات فضلا عن اشارة بعض المصادر الى وجود عدد من المدارس السنية التعليمية التي كانت قد انشأت قبل ظهور الحركة الكرامية . «٢»

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي بدأت الحركة الكرامية تأخذ طابعها السياسي حيث اخذ دعاتها يتقربون الى

---

(١) المقدسي ، ابو عبد الله محمد ، احسن التقاسيم في معرفه الاقاليم (لندن ١٨٧٧) ، ١٧٩ : ياقوت الحموي ، ابو عبد الله ، معجم البلدان (ليزك ٦٦ - ١٨٧٣) ، ٢ / ٣٩ .

(٢) انظر

Mossignon , Essai ., 232 :

وقارن :

Boswolth , The Ghaznauids, 186 :

لقد اورد ان ابي الوفاء ان البخاري قد دوس في مدرسة بنجاري انشأها أبو حفص الكبير في القرن التاسع الميلادي ، ومدرسة اخرى في بيهق بخرسان انشأها ابو الحسن البيهقي كما ذكرها ابن فندق : انظر ، ابن ابي الوفاء ، محي الدين ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ١ / ٦٧ : ابن فندق ، علي بن يزيد ، تاريخ بيهق (طهران ١٩٣٨) ، ١٥٨ .

حكام خراسان رغبة منهم في القضاء على الباطنية والروافض من الذين نشطوا هناك . وقد جاء نشاط الكرامية السياسي مع بداية ظهور الدولة الغزنوية . حيث قادهم الخطيب المتكلم ابو يعقوب اسحاق بن محمشاد الذي قيل بانه قد جلب الى حضرة الاسلام خمسة آلاف من اهل الكتاب والمجوس ، والذي كان له تأثير كبير على سبكتكين – والد السلطان محمود الغزنوي – لدى قيامه بقيادة الجيوش السامانية في خراسان : حتى قيل بان هذا القائد الغزنوي قد انضم فعلا الى الطائفة الكرامية . « ١ »

وعندما تسلم الحكم محمود الغزنوي سار على سياسة ابيه في التقرب الى هذه الجماعة : فمنحهم تأييده واستخدمهم كقوة ضاربة ضد المتطرفين من المعتزلة والباطنية . وقد حاول امام الكرامية ابو بكر محمد الاستفادة من تأييد السلطان الغزنوي وسعى الى تنفيذ مخططاته ومشاريعه السياسية الرامية الى الهيمنة على الطبقة الغنية من النبلاء – التي قد اطلق عليها بوزولت الطبقة البرجوازية الكبرى (haute bourgeoisie) وعدد من العلماء في نيسابور . « ٢ ».

وقد حدث عام ١٠٠٦م ما عزز العلاقات بين السلطان وامام

---

(١) العتبي ، ٢ / ٣١٠ : الجوباذقاني : ابو الشرف ناصح ، ترجمه تاريخ يميني ، (طهران ١٩٥٥) ٢٥٤ ؛ الذهبي ، ميزان : ١ / ٥٥ح : ابن العماد ، ابو الفلاح عبد الحي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة ١٩٣٨ – ١٩٤١) ، ٢ / ١٠٤ .

(٢)

Boswolth, the Gdaznauids ., 172

الكراميـة . ذلك عندما قام القرخانيـون باحتلال نيسابور حيث هالهم نشاط الكراميـين وما بلغـوه في المدينة من قوة وتمكن فقاموا باختطاف امامهم لدى مغادرتهم المدينة . الا ان هذا تمكـن مـن الهـرب قبل تقـدم الجيوش الغزنوية واشتباكها مع العدو . وبعد النصر الذي حققه السلطان محمود ضد القرخانيين ، عين امام الكرامية على رئاسة مدينة نيسابور ومنحه سلطات مطلقة في المدينة . «١»

سـعى ابو بكـر محمد الى استغـلال سلطانه في نيسابور واستخدم اساليب العنف ضد الفرق الباطنية والفرق المنحرفة من اصحاب البـدع ، وكثيراً ما كان يأخـذ امـوالا من بعض اصحاب البدع ثمنا لسكوته عليهم وعدم معاقبته لهم. وقد لعب خلال حكمه دوراً مهما في محاكمة واعدام الداعي الفاطمي طاهـر في عام ١٠١٢ – ١٠١٣م . الـذي ارسله الحاكم الفاطمـي الى بـلاد المشرق لنشر تعاليـم الفاطميـة متخفيا وراء صفته كرسول سلمي من الخليفة الى السلطان محمود . ولقد القى القبض عليه لدى وصولـه هراة وارسل من هناك الى نيسابور حيث استجوبه امام الكرامية واعلن بان مبادئه خطرة على الدولة الغزنوية وانتهى الامر باعدامه . «٢»

---

(١) العتبي ، ٢ / ٣١٠ – ٣١٢ ؛ الجوباذقاني ، ٢٥٤ .

(٢) العتبي ؛ ٢ /٢٣٧ – ٢٥٠ : الجرباذقاني ؛٢٣٧ – ٢٣٩ : ألكرديزي : بو سعيد : زين الاخبار (برلين ١٩٢٨) ؛ ٧١ : قارن ؛

Boswolth , The Ghaznauids , 187,
Barthold , Turkestan., 291 .

استمر ابو بكر محمد في مطاردة الفرق والعناصر المبتدعة وبصورة خاصة الروافض مستخدما كافة الوسائل التي اتيحت له فهدم مسجداً كان الروافض قد شيدوه في نيسابور .

وهاجم فرقة صوفية ظهرت في خراسان وتزعمها ابو سعيد بن ابي الخير الذي يعتبر صاحب اول رباعيات باللغة الفارسية .

وقيل ايضاً انه هاجم بعض اصحاب الكلام كالعلامة محمد بن حسين بن فودك الذي قدم نيسابور وصرح بتعاليمه الدينية ذات الطابع المعادي لما كان ينادي به الكرامية ،

وقيل ايضا ان هؤلاء اتهموه بالاعتزال والبدعة الامر الذي دفع السلطان محموداً الغزنوي الى استدعاء ابن نورك للمثول بين يديه في غزنه عاصمة دولته . وبعد ان استجوب في بلاط السلطان تبين زيف الادعاءات التي الصقت به فاطلق سراحه .

كما لحقت اساليب العنف التي اتبعها الكرامية بعض رجال الحديث كالحاكم أبي عبد الله محمد بن البيع صاحب اول كتاب في علم الحديث الذي سماه « المدخل الى معرفة الاكليل » ومؤلف كتاب تاريخ نيسابور . « ١ »

ولا شك ان سياسة ابي بكر محمد في محاربة الباطنية وبعض الفرق الصوفية لعبت دوراً في جذب بعض قادة

---

(١) ابن الجوزى ؛ ابو الفرج عبد الرحيم : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ؛ (حيدر آبا ١٩٣٨ - ١٩٤١) ٢٧٥/٧ : الصفدى : الوافي : ٣٢١/٣ ؛ محمد بن المنور ؛ اسرار التوحيد في مقامات الشيخ ابو سعيد :(بترسبرغ ١٨٩٩) ؛ ٨٤ - ٨٥ : السبكي ؛ طبقات الشافعية ؛ ٥٣/٣ :ابن العماد ؛ شذرات : ١٨٢/٣ . عبد الغافر الفارسي ؛ السياق لتاريخ نيسابور (مخطوطة) اسطنبول : كوبرلو ١١٥٢) ؛ ٣ .

الطبقات الدينية في المدينة وعلى رأسهم امام الحنفية القاضي صاعد وعلماء آخرون . الا انه سرعان ما حدث خلاف وتصدع في العلاقات بين امام الحنفية هذا وزعيم الكرامية ، وكانت المسائل التي اثير الخلاف حولها فقهية وكلامية في ظاهرها ، وصراعاً على السلطة في نيسابور في حقيقتها . «١»

وبعد عودة القاضي صاعد من الحج عام١٠١١-١٠١٢م اتجه الى غزنة واتصل بالسلطان محمود واستطاع خلال احدى المناظرات الاسلامية في البلاط الغزنوي اقناع المسؤلين بانحراف التعاليم الكرامية عن الشريعة الاسلامية بسبب دعوتهم الى التجسيم وما رافقته من تعاليم اخرى . وحينذاك استدعى السلطان ابا بكر محمد امام الكرامية وجابهه بالاتهامات التي قيلت بحقه . فانكر أبو بكر ما وجه اليه . الا ان السلطان لم يقتنع بذلك، واصدر امره الى حكام بلاده باستجواب اعضاء الطائفة الكرامية ومنعهم من التعليم في المدارس او الخطب على المنابر . وما لبث السلطان محمود الغزنوي ان خطا خطوات اخرى ضد الكرامية ، وذلك بتشكيل لجنة تحقيقية برئاسة ابي محمد الناصحي قاضي قضاة غزنة للتحقيق مع ابي بكر محمد والقاضي صاعد الحنفي . ولدى التحقيق تبادل الطرفان الاتهامات بالاعتزال والتجسيم . الا ان شهادة حاكم خراسان جاءت لصالح القاضي صاعد فضلاً عن ان

(١) انظر ؛

Boswolth, the Ghaznauids ., 188

السلطان محمود رفض هو الاخر قبول الاتهام الموجه الى القاضي بكونه معتزليا او مجسماً وقد اسفرت التحقيقات عن اقصاء ابي بكر محمد من رئاسة نيسابور وتعيين حسنك احد اعيان البلد ومن المقربين الى السلطان وهكذا عاد هذا المنصب الى الطبقة البرجوازية الكبرى في المدينة . «١»

طبق حسنك سياسة رادعة ضد الكرامية منذ اليوم الاول لتسلمه الرئاسة وقد اشار العتبى بان حسنك فاق زياد ابن ابيه الوالي الاموي في قسوته . وانزل نقمته على قادة الكرامية في نيسابور واعتقل عدداً من زعمائهم في سجن القلعه بالمدينة اما الامام أبو بكر محمد فقد انتهى به المطاف الى الاعتزال في منزله وتكريس حياته للتعبد والزهد وظل بمنأى عن عقاب الحاكم الحديد.

وما لبث حسنك ان انذر بقية الطوائف وبخاصة الروافض بان مصيرهم يعتمد بالدرجة الاولى على مدى استجابتهم للسلطة الامر الذي دفعهم الى مبايعة السلطان وتطرفوا في تأييدهم له الى الحد الذي جعلهم يطلقون عليه ظل الله في الارض «٢»

وهكذا كانت نهاية الحاكم القصير للكرامية في خراسان ، ورغم ذلك فقد ظلت هذه الطائفة تنشر تعاليمها دون ان تستعيد مكانتها السياسية السابقة : ويذكر ابن الاثير ان فتنة حدثت في نيسابور عام ١٠٩٥ بين الحنفية والشافعية بقيادة

---

(١) الجرباذقاني ؛ ٢٥٥ ؛ العتبي ؛ ٢/٣١١

(٢) المصدر السابق ؛ ٢/٣١١– ٣٢٥ ؛ الجرباذقاني ؛ ٣٥٤ – ٣٥٨ : قارن ؛
Boswolth, Turkestan, 289 - 90

الثامني ابي سعيد محمد بن صاعد «ابن القاضي صاعد» من جهة والكرامية بقيادة محمشاد من جهة اخرى . وانتهت بقتل عدد كبير من الطائفة الاخيرة وتدمير مدرستهم في نيسابور . «١»

استمرت الكرامية على نشاطها كطائفة لها اتباعها في. خراسان وما وراء النهر الى نهاية القرن الثالث عشر حيث فقدت بعد ذلك حيويتها ولم تعد قادرة على ان تلعب دوراً يذكر في مجالات الحياة المختلفة «٢»



(١) ابن الاثير ؛ عزالدين ؛ الكامل فيالتاريخ (ليدن ١٨٥١ – ١٨٧٦) ؛ ١٠/١٧١

(٢)

Barthold, Turkestan, 289-290

وانظر حول تاريخ الكرامية المتاخر في منطقة الغور :

Boswalth, The Early Islamic History ofGhur ' Central Asiatic Journal ' V 1 (1961), 116-33